الوحدة الثانية

١. أشعب والبخيل

- أبو الفرج الاسفهاني

حدث أشعب، قال: ولي المدينة رجل من ولد عامر بن لؤي، وكان أبخل الناس وأنكدهم ، وأغراه الله بي يطلبني في ليه ونهاره، فإن هربت منه هجم على منزلي بالشرط، وإن كنت في موضع بعث إلى من أكون معه أو عنده يطلبني منه، فيطالبني بأن أحدثه وأضحكه، ثم لا أسكت ولا ينام ، ولا يطعمني ولا يعطيني شيئاً، فلقيت منه جهداً عظيماً وبلاء شديدا، وحضر الحج، فقال لي: يا أشعب، كن معي، فقلت: بأبي أنت وأمي، أنا عليل، وليست لي نية في الحج. فقال: عليه وعليه، وقال: إن الكعبة بيت النار، لئن لم تخرج معي لأودعنك الحبس حتى أقدم، فخرجت معه مكرهاً، فلما نزلنا المنزل أظهر أنه صائم ونام حتى تشاغلت، ثم أكل ما سفرته، وأمر غلامه أن يطعمني رغيفين بملح، فجئت وعندي أنه صائم، ولم أزل أنتظر المغرب أتوقع إفطاره، فلما صليت المغرب قلت لغلامه: ما ينتظر بالأكل؟ قال: قد أكل منذ زمان، قلت: أو لم يكن صائماً؟ قال: لا، قلت: أفأطوي أنا؟ قال: قد أعد لك ما تأكله فكل، وأخرج إلي الرغيفين والملح فأكلتهما وبت ميتاً جوعاً، وأصبحت فسرنا حتى نزلنا المنزل، فقال لغلامه: ابتع لنا لحماً بدرهم، فابتاعه، فقال: كبب لي قطعاً، ففعل، فأكله ونصب القدر، فلما اغبرت قال: اغرف لي منها قطعاً، ففعل، فأكلها، ثم قال: اطرح فيها دقة وأطعمني منها، ففعل، ثم قال :ألق توابلها وأطعمني منها، ففعل؛ وأنا جالس أنظر إليه لا يدعوني، فلما استوفى اللحم كله قال: يا غلام، أطعم أشعب، ورمي إلى برغيفين، فجئت إلى القدر وإذا ليس فيها غلا مرق وعظام، فأكلت الرغيفين، وأخرج له جراباً فيه فاكهة يابسة، فأخذ منها حفنة فأكلها، وبقي في كفه كف لوز بقشره، ولم يكن له فيه حيلة، فرمى به إلي وقال: كل هذا يا أشعب، فذهبت أكسر واحدة منها فإذا بضرسي قد انكسرت منه قطعة فسقطت بين يدي، وتباعدت أطلب حجراً أكسره به، فوجدته، فضربت له لوزة فطفرت –يعلم الله– مقدار رمية حجر، وعدوت في طلبها، فبينما أنا في ذلك إذ أقبل بنو مصعب –يعني ابن ثابت وإخوانه– يلبون بتلك الحلوق الجهورية، فصحت بهم: الغوث الغوث العياذ بالله وبكم يا آل الزبير، الحقوني أدركوني، فركضوا إلي، فلما رأوني قالوا: أشعب، ما لك ويلك! قلت :خذوني معكم تخلصوني من الموت، فحملوني معهم، فجعلت أرفرف بيدي كما يفعل الفرخ إذا طلب الزق من أبويه، فقالوا: ما لك ويلك! قلت: ليس هذا وقت الحديث، زقوني مما معكم، فقد مت ضراً وجوعاً منذ ثلاث، قال: فأطعموني حتى تراجعت نفسي، وحملوني معهم في محمل، ثم قالوا: أخبرنا بقصتك، فحدثتهم وأريتهم ضرسي المكسورة، فجعلوا يضحكون ويصفقون وقالوا: ويلك! من أين وقعت على هذا؟ هذا من أبخل خلق الله وأدنئهم نفساً، فحلفت بالطلاق أني لا أدخل المدينة ما دام بها سلطان، فلم أدخلها حتى عزل.

الوحدة الثانية

٢. العبرة

من "حديث عيسى بن هشام

– محمد المويلحي بك

حدثنا عيسى بن هشام – قال: وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر، وتلك الخواطر والفكر، فرأيت قبراً انشقّ من تلك القبور، وقد خرج منه رجل، طويل القامة، عظيم الهامة، عليه بهاء المهابة، ورواء الشرف والنبالة. فصعقت من هول الوهل والوجل، صعقة موسى يوم دك الجبل. ولما أفقت من غشيتي، وانتبهت من دهشتي، أخذت أسرع في مشيتي، فسمعته يناديني، وأبصرته يدانيني، فوقفت امتثالاً لأمره، واتقاء لشره. ثم دار الحديث بيننا وجرى، على نحو ما تسمع وترى، وبالتركية تارة والعربية أخرى:

الدفين: ما اسمك أيها الرجل، وما عملك، وما الذي جاء بك؟

فقلت في نفسي: حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين، فهو يسأل على أسلوبهما، فاللهم أنقذني من الضيق وأوسع لي في الطريق، لأخلص من مناقشة الحساب، وأكتفي شر هذا العذاب. ثم التفتت إليه فأجبته:

عيسى بن هشام: أنا لست من كتاب الحساب والديوان، ولكني من كتاب الإنشاء والبيان.

الدفين: لا بأس بك، فاذهب أيها الكاتب المنشئ، فاطلب لي ثيابي، وليأتوني بفرسي "دحمان"

عيسى بن هشام: وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه؟

الدفين (مشمئزاً): قل لي بالله من أي الأقطار أنت؟ فإنه يظهر أنك لست من أهل مصر، إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية .

عيسى بن هشام: اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تُعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها، فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

الباشا (مغضباً): ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخَلا. فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها! وهل هي "إفادات أحكام" أو " عساكر نظام"؟ والأولى أن تناولني رداءك أستتر به وتصاحبني حتى أصل إلى بيتي .

قال عيسى بن هشام: فنزلت له عن ردائي، وقد كان المعهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطرق فإذا هو يكون أيضاً من سكان القبور، ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :

الباشا: للضرورة أحكام، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر، والتبديل في الليالي التي كان يقضيها في البلد؛ ليستطلع بنفسه أحوال الرعية. ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول؟

عيسى بن هشام: ماذا تريد؟

الباشا: أنسيت أننا في الثلث الأخير من الليل، وليس من يعرفني بهذا الرداء على أبواب مصر، ولم يكن معي كلمة "سر الليل" فكيف تُفتَح لنا الأبواب؟

عيسى بن هشام: كما أنك يا سيدي لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها في حياتك فأنا لا أعرف " سر الليل" ولم أسمع به .

الباشا (مستهزئاً ضاحكاً): ألم أقل لك إنك غريب الديار، ألم تعلم أن "سر الليل" كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى الضابط وإلى جميع" القره قولات "والأبواب. فلا يجيزون لأحد مشي الليل إلا إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها في أذن البواب فيفتح له. وهي تُعطى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل، وتتغير في كل ليلة: فليلة تكون كلمة" عدس"، وليلة تكون "خضار"، وليلة تكون "حمَام" وليلة تكون "فراخ" وهلم جرّا .

عيسى بن هشام: يظهر لي من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر. فما علمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير في ليلهم. على أن الفجر قد دنا ولم يبقَ بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها .

الباشا: الأمر في ذلك موكول إليك.

قال عيسى بن هشام: فسرنا في طريقنا وأخذ الباشا يزيدني تعريفاً بنفسه ويقص علي من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويذكر لي ما شاء من مآثر محمد علي وشجاعة إبراهيم، وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار إلى ساحة القلعة فوقف وقفة المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي.

قال عيسى بن هشام: ثم التفت الباشا إلي وقال :أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابي وأتقلد حسامي وأركب جوادي، ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال ولي النعم "الدواريّ" الأعظم.

الوحدة الثالثة

١. الهاوية

من " العبرات" لمصطفى لطفي المنفلوطي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهاوية

« موضوعة »

ما أكثر أيامَ الحياة وما أقلّها !؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا ، مر بي كما يمر النجم الدّهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العيْن التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعوزني ذلك حتى عرفت «فلانًا» منذ ثمانية عشرعامًا فعرفت امرءًا ما شئت أن أرى خَلّة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه ، ولا تخيلت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضاءت لي في وجهه ؛ فجلّت مكانته عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر .

حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي ، غير آسف على شيء فيها إلا على فراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عني كتبه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك همٌّ كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن نفسي . فلم أعد إلى القاهرة إلا بعد أعوام ، فكان أول همي يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم .

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقرق وجوه ساكنيه بشرًا وسرورًا ، ثم زرته اليوم فخيل إليّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف فيها صوت ، ولا يتراءى في جوانبها شبح ، ولا يلمع في أرجائها مصباح؛ فظننت أني أخطأت المنزل الذي أريده ، أو أنني بين يدي منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت في بعض النوافذ نورًا ضعيفًا فمشيت إلى الباب فطرقته ، فلم يجبني أحد فطرقته أخرى ، فلمحت من خَصاصه[1] نورًا مقبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحًا ضئيلاً ، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذي كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر سمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه ، حتى وصل بي إلى قاعة شعثاء مُغَبرة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباقي الوشْم في ظاهر اليد – ما عرفت أنها القاعة التي قضينا فيها ليالي السعادة والهناء اثني عشر هلالاً .

ثم جرى بيني وبين الغلام حديث قصير عرف فيه من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضى ، وما لبث إلا قليلاً حتى عاد يقول لي إن والدته تريد أن تحدثني حديثًا يتعلق بأبيه ، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف ، وأحسست بشرٍّ لا أعرف مأتاه[2] .

ثم التفتُّ فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتني فحييتها ، ثم قالت لي : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟»

قلت : « لا ؛ فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقته سبعة أعوام .»

قالت : « ليتك لم تفارقه ؛ فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى ، كما تعلمه ، غَرِيْرًا ساذَجًا ، فما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعًا في هذا

(١) الخَصاصُ جَمْعُ خَصاصَة ، وهي كل فُرْجَة أو خَرْق في باب أو غيره .

(٢) المأتى: الوجه الذي يأتي منه الشيء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشقاء الذي تراه .»

قلت : « وأي شر تريدين يا سيدتي ؟ ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه ؟»

قالت : « سأقص عليك كل شيء ، فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل بخير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحباله ، وأصبح من خاصته الذين لا يفارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا تزال ، نعالهم خافقة وراءه في غدواته وروحاته ، فاستحال من ذلك اليوم أمره ، وتنكرت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفَيْنة بعد الفينة [١] ، وعن منزله لا يزوره إلا في أخريات الليالي . ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحُظْوة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها خيراً كثيراً ؛ مغتفرة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده ، حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكابد غُصصاً شديدة وآلاماً جساماً ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شيء .

« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرؤوسه، في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذه صديقاً كما زعم ، بل نديماً على الشراب ، فتوسلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكبت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ؛ رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجديت عليه شيئاً .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ؛ لأني أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بُدَّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى النبيل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون – سكيراً مقامراً مُستَهتَراً لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا يتقي عاراً ولا مأثماً .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذي كان يضن بأولاده أن يعلق بهم الذُّر ، وبزوجه أن يتجهم[٢] لها وجه السماء ، أباً . قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عُشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون ويقصفون[٣] حتى يذهب بعقولهم الشراب ؛ فيهتاجوا ، ويرقصوا ، ويملأوا الجو صراخاً وهُتافاً ، ثم يتعادوا [٤] بعضهم وراء بعض في الأبهاء[٥] والحجرات حتى يلِجوا على باب غرفتي . وربما حدق بعضهم في وجهي أو حاول نزع خماري على مرأى من زوجي ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر أمراً ؛ فأفر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من المنزل جميعه وخرجت بلا إزار ، ولا خمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت جارة من جاراتي ؛ فأقضي عندهم بقية الليل .»

وهنا تغيرت نَغْمة صوتها ، فأمسكت عن الحديث وأطرقت برأسها ، فعلمت أنها تبكي ؛ فبكيت بيني وبين نفسي لبكائها ، ثم رفعت رأسها ، وعادت إلى حديثها تقول :

« وما هي إلا أعوام قلائل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال ، فكان لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، فرهن ، فعجز عن الوفاء ، فباع جميع ما يملك حتى هذا البيت الذي نسكنه ،

---

(١) الفَيْنة: الساعة والحين .

(٢) تجهّم له: استقبله بوجه كريه .

(٣) قَصَف الرجل: أقام في أكل وشراب ولهو .

(٤) يَتعادوا: يَتَباروا في العَدْوِ ، أي الجري .

(٥) الأبهاء: جمع بهو ، وهو المكان المُخَصَّصُ لاستقبال الضُّيوف.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يبق في يده غير راتبه الشهري الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ، ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو غنيمة للمقامرين !

« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وبأولادي ، فقد مر على آخر حِلْية بعتها من حُلاي : عام كامل ، وها هي حوانيت المرابين والمسترهنين مَلأى بملابسي ، وأدوات بيتي وأثاثه ، ولولا رجل من ذوي قرباي رقيق الحال[1] يعود عليَّ من حين إلى حين بالنَّزْر القليل مما يستلُّه من أشداق عياله ، لهلكت وهلك أولادي جوعاً .

« فلعلك تستطيع يا سيدي أن تكون عوناً لي على هذا الرجل المسكين ، فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح ، وأحسب أنك تقدر منه — للمنزلة التي تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .»

ثم حيتني ومضت لسبيلها ، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل ، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ، فانصرفت لشأني ، وقد أضمرت بين جنبي لوعة ما زالت تقيمني وتقعدني وتذود عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد ينقضي .

ثم عدت في صباح اليوم الثاني ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمري معه بعد ذلك ، وفي نفسي من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الذاهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه بجميع ما يمتلك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاهم .

الآن عرفت أن الوجوه مرايا [2] النفوس تضيء بضيائها وتظلم بظلامها ؛ فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأنستني الأيام صورته ، ولم يبق في ذاكرتي منها إلا ذلك الضياء اللامع ؛ ضياء الفضيلة والشرف الذي كان يتلألأ فيها تلألؤ نور الشمس في صفحتها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيني تلك الغِلالة البيضاء التي كنت أعرفها ، خيل إليَّ أنني أرى صورة غير الصورة الماضية ، ورجلاً غير الذي كنت أعرفه من قبل .

لم أر أمامي ذلك الفتى الجميل الوضّاح ، الذي كان كل منبت شعرة في وجهه فماً ضاحكاً تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلاً شقيًّا منكوباً ، قد لبس الهرمَ قبل أوانه ، وأوفى على الستين قبل أن يسلُخ الثلاثين ، فاسترخى حاجباه وثقلت أجفانه ، وجمدت نظراته ، وتهدل عارضاه ، وتجعد جبينه ، واستشرف[3] عاتقاه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقي الأحدب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك !»

وكأنما ألمَّ بما في نفسي ، وعرف أني قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئاً ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدري ماذا أقول لك . أ أعظك ، وقد كنت واعظي بالأمس ، ونجم هداي الذي أستنير به في ظلمات حياتي ؟! أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك في نفسك ، وفي أهلك ؟ ولا أعرف شيئاً أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عِبْرة تقصر يدك عن نيلها، أم أسترحمك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التي لا عضد لها في الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذي طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

« إن هذه الحياة التي تحياها يا سيدي ، إنما يلجأ إليها الهَمَلُ [4] العاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ؛ ليتواروا فيها عن أعين الناس حياء وخجلاً، حتى يأتيهم الموت فينقذهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد منهم .

---

(١) رقة الحال كناية عن الفقر .

(٢) المرايا: جميع مرآة .

(٣) استشرف: ارتفع . (٤) الهَمَلُ: المُهْمَلُ المتروك بلا رعاية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« إنك تمشي يا سيدي في طريق القبر ، وما أنت بناقم على الدنيا ولا بمتبرم[1] بها ، فما رغبتك في الخروج منها خروج اليائس المنتحر ! عذرتك لو أن ما ربحت في حياتك الثانية يقوم لك مقام ما خسرت من حياتك الأولى ، ولكنك تعلم أنك كنت غنيًّا فأصبحت فقيراً ، وصحيحاً فأصبحت سقيماً ، وشريفاً فأصبحت وضيعاً ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد خلَت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعنيك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه في جَرْعة سم تشربها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت المتقطع الذي يكثر فيه عذابك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأخرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسبنا يا صديق من الشقاء في هذه الحياة ما يأتينا به القدر ، فلا نضم إليه شقاء جديداً نجلبه بأنفسنا لأنفسنا ! فهات يدك وعاهدني على أن تكون لي منذ اليوم كما كنت لي بالأمس ، فقد كنا سعداء قبل أن نفترق ، ثم افترقنا فشقينا ، وها نحن أولاء قد التقينا ؛ فلنعش في ظلال الفضيلة والشرف سعداء كما كنا .»

ثم مددت يدي إليه ، فراعني أنه لم يحرك يده ؛ فقلت له : « مالك لا تمد يدك إليّ ؟»

فاستعبر باكياً وقال : « لأنني لا أحب أن أكون كاذباً ولا خائناً .»

قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟»

قال : « يمنعني منه أنني رجل شقيٌّ ، لا حظّ لي في سعادة السعداء .»

قلت : « قد استطعت أن تكون شقيًّا ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟»

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا قدرة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشربها حتى تُمالتها ، ولا شيء من الأشياء يستطيع ان يقف في سبيلي إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت الكأس الأولى قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله .»

قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين .»

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمري ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء ، وابك صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بأساً في البكاء على الساقطين المذنبين !»

ثم انفجر باكياً بصوت عال وتركني مكاني دون أن يحييني بكلمة ، وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فانصرفت لشأني وبين جنبي من الهم والكمد ما الله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل نديمه بالأمس زمناً طويلاً ، فأقصاه عن مجلسه استثقالاً له ، ثم عزله عن وظيفته استنكاراً لعمله ، ولم تذرف عينه دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فلجأ هو وزوجته و ولداه إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زوّيت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه يرى ظلاً من الظلال المتنقلة ، أو حلماً من الأحلام السارية ، يمشي في طريقه مِشية الذاهل المشدوه ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا يتقي ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينيه حول

---

(١) تبرم الأمر: سئِمَه وضَجِرَ منه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه ، كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه ، وما في أثوابه غير الرقاع والخروق ! وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شزراء كأنما يستقبل عدواً بغيضاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعاتقه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع النائم المستغرق عن عاتقه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سَوْرتها في رأسه ، انحدر إلى الحان فلايزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاها أن ترى ولدها وابنتها باكيين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بداً من أن تركب تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم ؛ فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلّما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين إلى حين ، فإذا فارقتها جارتها وخلت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تتقلب فيها في أعطاف العيش الناعم والنعمة السابغة ، بين زوج كريم وأولاد كالكواكب الزهر حسناً وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مَسُوداً ، والمخدوم خادماً ، والعزيز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك العقد اللؤلؤي المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتثاره إلى حصيات منبوذات على سطح الغبراء ، تطؤها النعال وتدوسها الحوافر والأقدام ؛ فتبكي بكاء الواله في إثر قوم ظاعنين حتى تتلف نفسها أو تكاد !

على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقداً لذلك الإنسان الذي كان سبباً في شقائها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام بمغاضبته أو هجرانه؛ لأنها امرأة شريفة ، والمرأة الشريفة لا تغدر بزوجها المنكوب . بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الحنون إلى طفلها الصغير ، فترحمه وتعطف عليه ، وتسهر بجانبه إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريحاً . وربما طرده الخمار في بعض لياليه من حانه، حينما لا يجد معه ثمن الشراب ؛ فيعود إلى بيته ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب طلباً شديداً ؛ فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تبتاع له من الخمر ما يسكن به نفسه ؛ رحمة به وإبقاء على تلك البقية الباقية من عقله .

وكأن الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الأثقال ، حتى أضاف إليها ثقلاً جديداً ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تتحرك في أحشائها ؛ فعلمت أنها حامل ، وأنها ستأتي إلى دار الشقاء بشقي جديد ، فهتفت صارخة : « رحمتك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة !» وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضعها ، فلم يحضرها أحد إلا جارتها العجوز ، فأعانها الله على أمرها فوضعت . ثم مرضت بعد ذلك بحمى النفاس مرضاً شديداً ، فلم تجد طبيباً يتصدق عليها بعلاجها؛ لأن البلد الذي لا يستحي أطباؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذي قتله ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فما زال الموت يدنو منها رويداً رويداً حتى أدركتها رحمة الله ، فوافاها أجلها في ساعة لا يوجد فيها بجانبها غير طفلتها الصغيرة عالقة بثديها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتاجاً يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له منه بما يريد ، فدار بعينيه في أنحاء الغرفة حتى رآها ممدة على حصيرها ، ورأى ابنتها تبكي بجانبها ، فظنها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيداً عنها ، وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فرابه الأمر وأحس برعدة تتمشى في أعضائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكبّ عليها يحدق في وجهها تحديقاً شديداً ، ويزحف نحوها رويداً رويداً حتى رأى شبح الموت يحدق إليه من عينيها الشاخصتين الجامدتين ، فتراجع خوفاً وذعراً فوطئ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في تراجعه صدر ابنته فأنّت أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشقاءاه ! واشقاءاه !»

وخرج هائماً على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعُمُد والجدران ، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتي ! زوجتي ! هلموا إليّ ! أدركوني !» حتى أعيا فسقط على الأرض ، وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن أنين الذبيح ، والناس من حوله آسفون عليه ، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقائه .

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .

وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولا في قاعة من قاعات البيمارستان ، فوا رحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء !

***

الجزاء

« مترجمة »

جلست على ضفة البحيرة لتملأ جرّتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر بيدها هذه المرآة الناعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرآة ؛ فظلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي افتتن به خطيبها القروي الجميل .

أنست بهذا المنظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبينته فإذا به خيال رجل فذعرت ، ولكنها لم تلتفت وراءها ومدت يدها إلى الماء فملأت جرتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرتك ؟» فالتفتت فإذا فتى حضري غريب حسن الصورة والبِزّة[1] لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فرابها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستقلت[2] جرتها ومضت في سبيلها .

نشأت سوزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الزهرتان المتعانقتان في مغرس واحد ، فرضعت معه وليدةً ، ولعبت معه طفلةً ، وأحبته فتاةً . ومرت بهما في جميع تلك الأدوار سعادة لم يستمداها من القصور والبساتين والأرائك والأسرة ، والجياد والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والغلائل المرصعة ؛ لأنهما كانا قرويين فقيرين .

بل استمداها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلألؤ السماء بنجومها الزاهرة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن الوقفات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغاني الرعاة ، وضوضاء السائمة في غدوها ورواحها ، وبكاء النواعير[3] في مسائها وصباحها ، ومن الحب الطاهر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعدها ، والأفئدة المظلمة فينيرها ، والأجنحة الكسيرة فيريشها ، والذي هو العزاء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلوى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو خلت رقعة الأرض من وجوه الناظرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ؛ لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء . ولو

---

(١) البِزّة: الهيئة . (٢) استَقَلَّ الشَّيْءَ: حَمَلَهُ وَ رَفَعَهُ .

(٣) النّواعير: جمع ناعورة ، وهي «الساقية» ، أي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البئر .

الوحدة الثالثة

٢. القديس لا يحار

من " قنديل أم هاشم" – يحيى حقي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحلل(١) القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ، ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم إلى اللحاق به فى هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئا ولا يستقر فى مكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار ، خشن الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلدا سهل إيواؤهم وإطعامهم . . وتشييعهم . ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذى يسير فى مؤخرة الموكب : مديد القامة عليه سمة النبل ، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة أنامله ، يشد بها حافتى مسوحه ، فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة . . من يكون؟ ولماذا يسير مطرق الرأس؟.

---

(١) نشرت فى مجلة «الرسالة» : العدد ٣٧٦ ، ٦/٩/١٩٤٠ ، ص ١٤٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية . تربى فى كنف العز وعاش السعداء ، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الأب وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه . دعا أخاه المدلل وقال له : .

— لا أريد أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك فى قلب أبى الكريم كان فوق مقامى ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف فى كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس. فلما تزامى الخبر إلى الناس عدوها كبرى معجزاته، وأكبروا فى النبيل نزوله عن الغنى والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز فى سبيل الله .

طارت شهرة الأمير النبيل بين الناس وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لايجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو فى ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفسا وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذى سبقت إرادته، فاختار هذا الوليد لحياة كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصه فوق المسوح الخشنة وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعبا بل حراما ، شعرن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقشريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . . لماذا هو مطرق ؟ ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس بحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه ، فقيل له إنه ثرى عظيم لاهم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن برهم ، فعدل القديس عن مواصلة سيره ، ودخل القصر ليهدم منه الشيطان معقلا ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه فوجد الثرى جالسا أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه ، لعلهما تنبسان بأمر .

امتلأت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هى سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ كأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر . وسحرت بلاغته الحاضرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل ، لحطت لك هذا المسح على قدك ، فانني أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ! فلست ذاهباً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— ويلى إذا ؟ لقد كنت أظن الرقص عبادة ، فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم .

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ما كرة هازئة كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح ، لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها ، كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين فى أن كل هذا سراب ، وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية فى الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتى سماعها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— إن الله قد أغدق نعماءه على الكون، ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر ، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلا عن جماله . وهذا ماض سيعقد لك فى مستقبلك وإن جاهدت . خذها عنى : إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار . . . ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هل اعترف أنك فهمت أننى أعلم لماذا ارتديت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها نصف ، والدنيا لأن كل لذة فيها تنقضى ، فاذا هى تقصرعن حد تتخيله ، وتسير فى مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدى الله لسألته . ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إننى أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت فى عطفها ما يرطب قلبك . وما أشبهه الآن بصخرة فى أعلى الجبل . . . ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق : انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبى كيف تؤمن أولا بإنسانيتك، ليصح إيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين ، إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد . سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدى ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ورقصنا فتمثلت النغمة فى حركاتنا ، ثم أنفلت عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى . . . وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهد كل شىء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) . إنه سيظل حيث هو ، جاهدا فى طريقه ، محتملا مالا تقوى على احتماله الجبال ، آملا أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه الكريم . . . ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى .

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً تطأطأت الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات . وانفجرت الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء .

وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء :

— أسلمت قيادى إليك ، فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك مخازنى بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأتبعك كظلك ، ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضا كل هؤلاء : زوجى، وأبنائى وزوجاتهم ، وبناتى وأزواجهن ، والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير. ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تائهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لو تبعوك لخرب القصر ، وبارت الأرض ، ونفقت الدواب . ومن أين لك إطعامهم وإيواؤهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل : « إذا ما حكمة رسالتى؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق ، فلابد من أنه يصح للناس أجمعين » .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة . فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما — تبدو لبقية الناس — متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتفهم الأسرار فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

ـ يابنى ! أحمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق ... على يدى ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لايقوى عليه إلا القديسون أمثالى . فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك، وداعب أولادك وبناتك، وأشرف على شئون خدمك وحشمك ، وحقولك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة حتى تعلم أن كل ماحولك زائل ، وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لايضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئا . فاستمر القديس يقول :

ـ لا تحزن ، إنك ستمكث فى القصر ـ فى نظرك ـ ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ماقيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوات ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعنى بروحك ، بإيمانك . . ولك على أننى لن أنساك فى يوم . فلن يغيب عنك ندائى بل سأحمل شخصك فى قرارة قلبى . سأنشىء لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فتربطنى وإياكم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ، ودبت فيها روح البهجة ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجه ، وداعب أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم بالانصراف عن يساره . . . ولكن هاتفاً هتف به ، فإذا هو يتمتم لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله .

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع ، واتخذ مكانه بينهم ، لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

ووقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

— ياله من غر مسكين لم يفهم الوحى . لما نادته رحمة الله أن ابق فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

الوحدة الرابعة

١. قلب امرأة

من " الكابوس وقصص أخرى"
– نجيب الكيلاني

خيم علي البيت جو مزعج من الكآبة والتوتر، البيت الهادىء المريح، ذلك العش الجميل الذي كان يورق دائما –كالربيع–بالحب والامل والضحكات المرحة أمس مقبضا،ها هو "سالم" يصرخ لأوهي الاسباب، ويوجه إليها.. الي زوجته "ليلي" التعليقات الساخرة، التي تطفح بالمرارة والحنق.. لقد مر عليهما عام كان كالحلم الجميل ... الشوق والحب والزكريات الشذية.. ولديهما المال الكثير.. و"فيلا" فاخرة.. مكيفة الهواء، رائعة الاثاث، وثلاث من الخدم المخلصيب.... وفجأة هزتهما يد عنيفة فأفاقا الي حقيقة مؤلمة ... أدركا أنه ينقصهما شيء هام. .. الولد...

وذات مساء تمتم سالم محقن الوجه:
– " نحن كالارض الخراب.. "
قالت ليلي:
– " لا حيلة لنا في الامر ..لقد أكدت لي الطبيبة انني طبيعية .. وليس هناك شيء يحتاج لعلاج...

وهب سالم واقفا، وصرخ كمن سدد الي قلبيه سهم قاتل :
– "والطبيب وصل الي نفس النتيجة بالنسبة لي".
– "بقي ان نصبر يا سالم"
– "انا اكره العجز.. دائما كنت احقق كل ما اريد"

ارادت ان تهدي من ثورته، حاولت ان تبعث في قلبه موات الامل، "الامر سهل لا تعقيد فيه، ما دام ليس هناك ما يمنع من الانجاب، المسألة مسألة وقت، وكل شي بأوان...".

وتذكرت المطر ...ينهل من السماء العابسة المتجهمة.. ويذوب في أحشاء الأرض القاحلة... فتتمطى وتتثاءب ... وتستيقظ .... ثم يبتسم الزرع الأخضر... وتتجلى الورود كشفاه ندية تقبل الوجود، كل الوجود... معجزة الخصب الخالدة...
– " عندما تخضر الصحراء يا سالم.. اشعر بالحياة. يغني في صدري الأمل، وتنسكب دموع الفرح..."

دفعها سالم في غيظ، وانتحى جانبا، ثم ملأ كأسا، وشربها دفعة واحدة... واستدار نحوها قائلا:
– " لا بدّ أن يكون لي ولد"
– " وأنا ؟ كنت أعتقد أن حبي لك يشغلك عن أي شيء آخر"

شرب كأسا ثانية، وقال في وقاحة:
– "العقيم كالشجرة التي لا تثمر.. النار أولى بها..."

انقبض صدرها، صدمت بحديثها العاري من كل عاطفة نبيلة...
- " إذن كانت حياتنا خداعا"
- " لا أدري... إنني أنظر إلى الناطور الذي ينجب كل عام فأكاد أجن...أين العدل في ذلك ؟ ومع هذا ، فإني أستطيع أن أجد الحل...".

لم تكن من الغباء بحيث يخفي عليها ما يقصده، تلك طبيعة الرجال، إنه بالتأكيد يفكر في الزواج من امرأة أخرى، وعندما أدركت ذلك، اشتعل قلبها غيظا، وهتفت:
- " لست المسؤولية وحدي عن ذلك"

قهقه في سخرية:
- " ما علي إلا أحمل وألد نيابة عنك..."

استخفت تعليقه الجارح، لكنها لم تستطع أن تقول شيئا، أرخت أهدابها في ذلة، وانصرفت إلى المطبخ. ومضت أيامها ثقيلة مملة، شعرت بأنها صغيرة.. تافهة... وأنها ترمى بجريمة لم ترتكبها وتلام على فعل لم تفعله، كالبريء الذي يعلق على المشنقة، وهو لا يدري أي جرم ولغ فيه... شعورها بالظلم، وعدم اقتناعها بما تعانيه من ألم تعاستها، ويهقد مشكلتها أكثر فأكثر، ها هو يقضي نهاره في العمل، وينصرف في المساء إلى سهراته التي تقترب من الفجر، ويعود مرهقا سكرانا، يبعثر شتائمه هنا وهناك، أصبح يسخر من كل شيء، من قميص النوم الذي ترتديه، من تصفيف شعرها، من مكياج وجهها، كل الأشياء التي كانت تسحره في الماضي، أصبحت تنفره، وسرعان ما يلقي بجسده المرهق على الفراش، ثم يمضي في سبات عميق.
وها هو شعور الغربة والوحدة يلازمها مضافا إليه شعور الظلم زالذلة... لكنها كانت تناضل مستميتة، من أجل الحفاظ على صفاء قلبها وروحها، كانت تتشبث بالذكريات اللجميلة، وبالعلاقة الزوجية المقدسة، وحاولت أن تقنع نفسها بأن زوجها ليس مسؤولا تماما عن كل ما يجري، إذ أن كل رجل يتمنى أن يكون له ولد، تلك سنة من سنن الحياة... والولد نبع سحري من السعادة والحنان... إشباع لأمنية غريزية تنتفض بها الروح، ويخفق بها القلب... ذلك في الدم والروح... مسكين سالم! يجب أن أعذره، وأتغاضى عن هفواته... وتدمع عيناها وتتطلع إلى السماء في ضراعة صامتة، أبلغ من آلاف الدعوات... ثم تتطلع عبر النافذة إلى السماء والصحراء... والمطر... ورائحة الخصب تملأ خياشيمها...

وفي صبيحة احد الايام قال لها انه مسافر الي "شيراز" لعقد صفقة تجارية، وانه يتاخر اسبوعين، فدعت له بالتوفيق والسلامة، وسعدت ايماسعادة بهذة الفرصة الذهبية، لانها ستنتهزها وتذهب الي جميع من تعرف من الاطباء والطبيبات، وسوف تفعل المستحيل من اجل "الولد" ... لاسعاد زوجها وللعودة مرة اخري الي الحياة الرائعة.... أيام الزواج الأولى.. التي مرت كالحلم الفاتن.

وظلت تجري هنا وهناك وبين عيادات الاطباء، والمطوعين والدجالين، ولم تترك بابا الا وطرقته، وذهبت اخيرا الي الطبيب الذي ذهب اليه زوجها.... وبعد ان اجري لها جميع الفحوص اللازمة، قال:
- "أستطيع ان اؤكد انك سليمة مائة في المائة"

ثم استطرد:
- "بقي ان يحضر زوجك الي... اننا نفضل البدء بفحص الرجال اولا"

قالت في دهشة ؟
- "لكنك فحصته..."
- " من ؟؟"

- " سالم بن ..."

شحب وجه الطبيب، وبدا عليه الاضطراب والحيرة، وتمتم:

- " ولاكنه يعلم....."

نهضت مذهولة وامسكت بيد الطبيب ضارعة وقالت:

- " يعلم ماذا ؟ "
- " ألم يخبرك؟ "
- "اخبرني ان ..."

قال الطبيب في ايجاز:

- " ان حالته ميؤس منها... تلك هي الحقيقة"

تهاوت علي المقعد، وتندي جبينها بالعرق، ثم شهقت باكية:

- " مستحيل.....مستحيل"

ربت الطبيب على ظهرها في ود، وهو يعض على شاربه الأبيض:

وقال:

-" يجب أن نرضى بما قسمه الله... لا ذنب لك.. وفي الحقيقة لا ذنب له هو الآخر ...."

قالت وهي تجفف دموعها

- "لقد كان يفكر في الزواج من غيري....."

ابتسم الطبيب قائلا :

- " إنني لا أوافقه على كتمان الأمر عنك.. لماذا تتعرضين للظلم والتقريع وأنت بريئة كل البراءة ... لكن يجب أن تعديني بأن تكتمي سره...".

ربما شعرت بارتياح مفاجيء وعادت الي نفسها الثقة الضائعة، لكأنما انزاح عن كاهلها عبء ثقيل. وشعرت بالعطف علي زوجها، انه كان يحاول ان يخفي نقصه وراء الكأس والكذب والألفاظ القاسية.... وتذكرت الربيع والمطر... والأرض إذ تنتعش... وترتوي، وتبتسم عن ورد وأزهار وأوراق خضراء. فسالت على وجنتيها الدموع.

وعاد سالم بعد اسبوعين، استقبلته في ود ولهفة وعلي الرغم مما كان يشعر به من صدق عواطفها، وحرارة لقاءها إلا أنه قال:

- "لا تحزني ....كان لا بد ان يحدث .. لقد تزوجت... ولك مطلق الحرية في ان تبقي...او....."

نظرت إليه في دهشة، لم ترتجف أو تتهاوين بل ظلت شامخة، وهمست في حزن:

- " بل سابقي"

أحنقه ذلك، كان يتمني لو هرولت الي الخارج، وتركته وحده، ولكنه فوجيء بموقفها الغريب، كان يعلم أنها تعتز بكبريائها وشخصيتها، وتأتف من أن تشاركها امرأة أخرى في حياتها، إن شعور المرأة بأنها لا تملأ حياة زوجها شعور قاتل تتولد منه براكين من النقمة والتمرد المكظوم.

وتمتم:

- "حسنا .. يجب ان ترضي بالواقع، ولا تثيري القلاقل"
- " سأظل وفية لك طول حياتي"

زمجر في حماقة:

- " هذا لا يهم ..اعني انه امر بديهي.. اتظنين نفسك قادرة علي العصيان....انت مجرد امرأة"

ألهبتها كلمتاه الأخيرة، شعرت انها حشرة...مخلوقة تافهة ولا قيمة لها، فرضت عليها الطاعة كأنها مرغمة على الفضيلة، له أن يتصرف في رعونة، ويدوس عواطفهان ويسخر من كبريائها، ثم عليها أن تستسلم وترضخ وتذل، لا مناص من أن تكون مخلصة وفيه لا كطبيعة فيها، ولكن لأن الرجل يريد ذلك..

وتمتم بصوت خفيض:

- "وانا لم أيأس بعد..وانجاب الطفل امر هين. يفعله ملايين من البشر وفي كل مكان..."

رق قلبها من جديد ، تطلعت إلى مأساته التي يخفيها وراء المظهر الخشن، والكلمات الجارحة، والتصرفات الشاذة، فأغرورقت عيناها بالدموع، واقتربت منه، وضمته إلى صدرها في اشفاق وحنان....نظر إليها في دهشة، وقالت:

- " لن أتخلي عنك في محنتك"

ضحك ساخرا وهز كتفيه باستغراب:

- " لست في محنة"

أمسكت بيده في قوة وتشبث وقالت:

- " أنا أعلم بكل شيء.."

صرخ في ذعر:

- " ماذا ؟"
- " أنت بالنسبة لي الزوج.. والأخ... والابن..أنت حياتي ..".

دق قلبه هلعا، وامتقع وجهه، وانتزع يده هاتفا:

- " ماذا تقصدين ؟"

همت أن تصرح له بالحقيقة، لكنها أبت أن تهبط بكبرياء الرجل، وتجرعه كأس المرارة والهوان، إنه زوجها الذي تحبه، وبدا أمامها تعسا مسكينا محروما... عاجزا... وتدفق نبع الحنان الأصيل من قلبها، وانسكب على لسانها:

- " انت لو تزوجت ثالثة و رابعة لم اخرج من هنا.. لاني فقط احبك.. وقد يشفي الله من عقمي في يوم من الايام...."

مال نحوها وطبع علي جبينها قبلة حانية، وقد اطمأن باله، وقال:

- " أو تظنين انني استطيع ان اتزوج غيرك؟؟ كان مجرد امتحان لأتبين مدي صدق ولائك وحبك..".

واخذت تضحك. وتضحك... لكن الدموع كانت تملأ عينيها....

الوحدة الرابعة

٢. مرتا البانية

من " عرائس المروج" لجبران خليل جبران

مرتا البانية (*)

1

مات والدها وهي في المهد ، وماتت أمها قبل بلوغها العاشرة ، فتركت يتيمة في بيت جارٍ فقير يعيش مع رفيقته وصغاره من بذور الأرض وثمارها في تلك المزرعة المنفردة بين أودية لبنان الجميلة.

مات والدها ولم يورثها غير اسمه وكوخ حقير قائم بين أشجار الجوز والحور، وماتت أمها ولم تترك لها سوى دموع الأسى وذّل التيتم ،فباتت غريبة في أرض مولدها ،وحيدة بين تلك الصخور العالية والأشجار المحتبكة وكانت تسير في كل صباح عارية القدمين رثة الثوب وراء بقرة حلوب إلى طرف الوادي حيث المرعى الخصيب وتجلس بظل الأغصان مترنمة مع العصافير باكية مع الجداول ، حاسدة البقرة على وفرة المآكل ، متأملة بنمو الزهور ورفرفة الفراشات وعندما تغيب الشمس ويضنيها الجوع ترجع نحو ذلك الكوخ وتجلس مع صبية وليها ملتهمة خبز الذرة مع قليل من الثمار المجففة والبقول المغموسة بالخل والزيت ،ثم تفترش القش اليابس مسندة رأسها بساعديها وتنام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نوما عميقاً لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة. وعند مجيء الفجر ينهرها وليّها لقضاء حاجة فتهب من رقادها مرتعدة خائفة من سخطه وتعنيفه.

كذا مرت الأعوام على مرتا المسكينة بين تلك الروابي والأودية البعيدة ،فكانت تنمو بنمو الأنصاب وتتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في أعماق الزهرة ،وتنتابها الأحلام والهواجس مثلما تتناوب القطعان مجاري المياه ،فصارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار وذات نفس كبيرة طاهرة منقّية بحكم القدر إلى تلك المزرعة حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظّل غير معروف جالس بين الأرض والشمس .

نحن الذين صرفوا معظم العمر فى المدن الآهلة نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى و المزارع المنزوية فى لبنان ، قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً و نقاوة ، تلك الحياة التى إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة فى الربيع ، مثقلة فى الصيف ، مستغلة فى الخريف ، مرتاحة فى الشتاء ، متشبهة بأمنا الطبيعة فى كل أدوارها . نحن أكثر من القرويين مالاً و هم أشرف منا نفوساً . نحن نزرع كثيراً و لا نحصد شيئاً ، أما هم فيحصدون ما يزرعون . نحن عبيد مطامعنا و هم أبناء قناعتهم . نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس و الخوف و الملل ، و هم يرتشفونها صافية .

بلغت مرتا السادسة عشرة وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يرجع صدى كل الأصوات ... ففي يوم من أيام الخريف المملوءة بتأوه الطبيعة جلست بقرب العين المنعتقة من أسر الأرض انعتاق الأفكار من مخيلة الشاعر تتأمل باضطراب أوراق الأشجار المصفرّة وتلاعب الهواء بها مثلما يتلاعب الموت بأرواح البشر ،ثم تنظر نحو الزهور فتراها قد ذبلت ويبست قلوبها حتى تشققت وأصبحت تستودع التراب بذورها مثلما تفعل النساء بالجواهر والحلي أيام الثورات والحروب.

وبينما هي تنظر إلى الزهور والأشجار ،وتشعر معها بألم فراق الصيف ، سمعت وقع حوافر على حصباء الوادي، فالتفتت وإذا بفارس يتقدم نحوها ببطء ،ولما اقترب من العين وقد دلت ملامحه وملابسه على ترف

وكياسة ترجل عن ظهر جواده وحيّاها بلطف ما تعودته من رجل قط، ثم سألها قائلاً:"قد تهت عن الطريق المؤدية إلى الساحل فهل لك أن تهديني أيتها الفتاة ؟" فأجابت وقد وقفت منتصبة على حافة العين :"لست أدري يا سيدي ولكني أذهب وأسأل وليّي فهو يعلم " .قالت هذه الكلمات بوجل ظاهر وقد أكسبها الحياء رقة وجمالا ،وإذ همت بالذهاب أوقفها الرجل وقد سرت في عروقه خمرة الشبيبة وتغيرت نظراته وقال :"لا ،لا تذهبي" . فوقفت في مكانها مستغربة شاعرة بوجود قوة في صوته تمنعها من الحراك . ولما اختلست من الحياء نظرة إليه رأته يتأملها باهتمام لم تفقه له معنى ويبتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته وينظر بمودة وميل إلى قدميها العاريتين ومعصميها الجميلين وعنقها الأملس وشعرها الكثيف الناعم ويتأمل بافتتان وشغف كيف لوحت الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها ،أما هي فكانت مطرقة خجلاً لا تريد الانصراف و لا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها .

في ذلك المساء رجعت البقرة الحلوب وحدها إلى الحظيرة ،أما مرتا فلم ترجع ،ولما عاد وليها من الحقل بحث عنها في تلك بين تلك الوهاد ولم يجدها ،فكان يناديها باسمها ولا تجيبه غير الكهوف وتأوهات الهواء بين الأشجار .فرجع مكتئباً إلى كوخه وأخبر زوجته فبكت بسكينة طوال ذلك الليل وكانت تقول في سرّها: رأيتها مرة في الحلم بين أظافر وحش كاسر يمزق جسدها وهي تبتسم وتبكي !

هذا إجمال ما عرفته عن حياة مرتا في تلك المزرعة الجميلة ،وقد تخبرته من شيخ قروي عرفها مذ كانت طفلة حتى شبت واختفت من تلك الأماكن غير تاركة خلفها سوى دموع قليلة في عيني امرأة وليها ،وذكرى رقيقة مؤثرة تسيل مع نسيمات الصباح في ذلك الوادي ، ثم تضمحل كأنها لهاث طفل على بلور النافذة.

2

جاء خريف سنة 1900 فعدت إلى بيروت بعد أن صرفت العطلة المدرسية في شمال لبنان ،وقبل دخولي إلى المدرسة قضيت أسبوعاً كاملا أتجول مع أترابي في المدينة متمتعين بغبطة الحرية التي تعشقها الشبيبة وتحرمها في منازل الأهل وبين جدران المدرسة ،فكنا أشبه بعصافير رأت أبواب الأقفاص مفتوحة أمامها فصارت تشبع القلب من لذة التنقل وغبطة التغريد ، و الشبيبة حلم جميل تسترق عذوبته معميات الكتب و تجعله يقظة قاسية ، فهل يجئ يوم يجمع فيه الحكماء بين أحلام الشبيبة و لذة المعرفة مثلما يجمع العتاب بين القلوب المتنافرة ؟ هل يجئ يوم تصبح فيه الطبيعة معلمة ابن آدم ، و الإنسانية كتابه ، و الحياة مدرسته ؟ هل يجئ هذا اليوم ؟ لا ندرى ، و لكننا نشعر بسيرنا الحثيث نحو الارتقاء الروحى ، و ذلك الارتقاء هو إدراك جمال الكائنات بواسطة عواطف نفوسنا و استدرار السعادة بمحبتنا ذلك الجمال .

ففي عشية يوم وقد جلست على شرفة المنزل أتأمل العراك المستمر في ساحة المدينة ، وأسمع جلبة باعة الشوارع ومناداة كل منهم عن طيب ما لديه من السلع والمآكل ،اقترب مني صبي ابن خمس يرتدي أطماراً بالية ويحمل على منكبيه طبقاً عليه طاقات الزهور ، وبصوت ضعيف يخفضه الذل الموروث و الانكسار الأليم قال:

- أتشتري زهراً يا سيدي ؟

فنظرت إلى وجهه الصغير المصفر ، وتأملت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة ، وفمه المفتوح قليلا كأنه جرح عميق في صدر متوجع وذراعيه العاريتين النحيلتين وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة ، تأملت كل هذه الأشياء بلمحة مظهراً شفقتي بابتسامات هي أمر من الدموع ، تلك الابتسامات التي تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا . ثم ابتعت بعض زهوره و بغيتى ابتياع محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوى على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام ، و قل من يهتم بمشاهدتها لأنها موجعة . و لما خاطبته بكلمات لطيفة استأمن و استأنس و نظر إليّ مستغرباً لأنه مثل أترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقة كأشياء قذرة لا شأن لها ، و ليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر . و سألته إذ ذاك قائلاً :

ـ ما اسمك؟

فأجاب وعيناه مطرقتان إلى الأرض :

ـ اسمي فؤاد !

قلت : ابن من أنت وأين أهلك ؟

قال: أنا ابن مرتا البائية.

قلت : وأين والدك؟

فهز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد . فقلت:

ـ وأين أمك يا فؤاد؟

قال : مريضة في البيت.

تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصتها عواطفي مبتدعة صورا وأشباحا غريبة محزنة لأني عرفت بلحظة أن مرتا المسكينة التي سمعت حكايتها من ذلك القروي هي الآن في بيروت مريضة .تلك الصبية التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني مضض الفقر والأوجاع ، تلك اليتيمة التي صرفت شبيبتها على أكف الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء .

كنت أفكر وأتخيل هذه الأشياء والصبي ينظر إليّ كأنه رأى بعين نفسه الطاهرة انسحاق قلبي . ولما أراد الانصراف أمسكت بيده قائلاً :

ـ سر بي إلى أمك لأني أريد أن أراها ! .

فسار أمامي متعجباً صامتاً ، و من حين لآخر كان ينظر إلى الوراء ليرى إذا كنت بالحقيقة متبعاً خطواته .

في تلك الأزقة القذرة حيث يختمر الهواء بأنفاس الموت ،بين تلك المنازل البالية حيث يرتكب الأشرار جرائمهم مختبئين بستائر الظلمة ، وفي تلك المنعطفات الملتوية إلى اليمين وإلى الشمال التواء الأفاعي السوداء كنت أسير بخوف وتهيب وراء صبي من حداثته ونقاوة قلبة شجاعة لا يشعر بها من كان خبير بمكايد أجلاف القوم فى مدينة يدعوها الشرقيون عروس سوريا و درة تاج السلاطين ، حتى إذا ما بلغنا أذيال الحي دخل الصبي بيتاً حقيراً لم تبق منه السنون غير جانب متداع . فدخلت خلفه وطرقات قلبي تتسارع كلما اقتربت حتى صرت في وسط غرفة رطبة الهواء ليس فيها من الأثاث غير سراج ضعيف يغالب بسهام أشعته الصفراء ، وسرير حقير يدّل على عوز مبرح وفقر مدقع منطرحة عليه امرأة نائمة قد حولت وجهها نحو الحائط كأنها تحتمي به من مظالم العالم أو كأنها وجدت بين جدرانه قلباً أرق وألين من قلوب البشر .ولما اقترب الصبي منها منادياً :"يا أماه !..." التفتت إليه فرأته يومئ نحوي فتحركت إذ ذاك بين اللحف الرثة ، وبصوت موجع يلاحقه ألم النفس والتنهيدات المرة قالت:

ـ ماذا تريد أيها الرجل ؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك ؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان . أما أنا فلم يبق لي ما أبيعه غير فضلات أنفاس متقطعة ، عما قريب يشتريها الموت براحة القبر !

فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها التعسة ، وقلت متمنياً لو كانت عواطفي تسيل مع الكلام :

ـ لا تخافي مني يا مرتا فأنا لم أجيء إليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجع .أنا لبناني عشت زمناً في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز . لا تخافي مني يا مرتا !

سمعت كلماتي وشعرت بأنها صادرة من أعماق نفس تتألم معها ، فاهتزت على مضجعها مثل القضبان العارية أمام رياح الشتاء ، ووضعت يديها على وجهها كأنها تريد أن تستر ذاتها من أمام الذكرى الهائلة بحلاوتها المرة بجمالها . و بعد سكينة ممزوجة بالتأوه ظهر وجهها من بين كتفيها المرتجفتين فرأيت عينين غائرتين محدقتين إلى شئ غير منظور منتصب فى فضاء الغرفة ، و شفتين يابستين تحركهما ارتعاشات اليأس ، و عنقاً تتردد فيه حشرجة النزع المصحوبة بأنين عميق متقطع ، وبصوت يبثه الالتماس والاستعطاف ويسترجعه الضعف والألم قالت :

ـ جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني إن كان الإحسان على الخطاة براً والشفقة على المرذولين صلاحاً ، ولكني أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت لأن وقوفك في هذا المكان يكسبك عارا ومذمة ، وحنانك علي يثمر لك عيبا ومهانة .ارجع قبل أن يراك أحد في هذه الغرفة المملوءة بأقذار الخنازير ، وسر مسرعا ساترا وجهك بأثوابك كيلا يعرفك عابرو الطريق .إن الشفقة التي تملأ نفسك لا تعيد إلي طهارتي ، و لا تمحو عيوبى ، و لا تزيل يد الموت القوية عن قلبى . أنا منفية بحكم تعاستى و ذنوبى إلى هذه الأعماق المظلمة ، فلا تدع شفقتك تدنيك من العيوب . أنا كالأبرص الساكن بين القبور فلا تقترب مني ، لأن الجامعة تحسبك دنساً و تقصيك عنها إذا فعلت. ارجع الآن و لا تذكر اسمى فى تلك الأودية المقدسة ، لأن النعجة الجرباء ينكرها راعيها خوفاً على قطيعه . وإذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البائية و لا تقل غير ذلك .

ثم أخذت يدي ابنها الصغيرتين وقبلتهما بلهفة وقالت متنهدة :

ـ سوف ينظر الناس إلى ولدي بعيني السخرية والاحتقار قائلين: هذا ثمرة الإثم ،هذا ابن مرتا الزانية ، هذا ابن العار هذا ابن الصدف .سوف يقولون عنه أكثر من ذلك لأنهم عميان لا يبصرون ، وجهلاء لا يدرون أن أمه قد طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها ، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها . سوف أموت و أتركه يتيماً بين

صبيان الأزقة وحيداً فى هذه الحياة القاسية ، غير تاركة له سوى ذكرى هائلة تخجله إن كان جباناً خاملاً و تهيج دمه إن كان شجاعاً عادلاً ، فإن حفظته السماء و شب رجلاً قوياً ساعد السماء على الذى جنى عليه و على أمه ، و إن مات و تملص من شبكة السنين وجدنى مترقبة قدومه هناك حيث النور و الراحة !

فقلت وقلبي يوحي إليّ :" لستِ كالأبرص يا مرتا وان سكنتِ بين القبور ،ولستِ دنسة وإن وضعتك الحياة بين أيدي الدنسين .إن أدران الجسد لا تلامس النفس النقية ، والثلوج المتراكمة لا تميت البذور الحية ، وما هذه الحياة سوى بيدر أحزان تدرس عليه أغمار النفوس قبل أن تعطي غلتها ولكن ويل للسنابل المتروكة خارج البيدر لأن نمل الأرض يحملها وطيور السماء تلتقطها ،فلا تدخل أهراء رب الحقل. أنتِ مظلومة يا مرتا وظالمك هو ابن القصور ذو المال الكثير والنفس الصغيرة . أنت مظلومة و محتَقرة ، و خير للإنسان أن يكون مظلوماً من أن يكون ظالماً ، و أخلق به أن يكون شهيد ضعف الغريزة الترابية من أن يكون قوياً ساحقاً بمقابضه زهور الحياة ، مشوهاً بميوله محاسن العواطف . النفس يا مرتا هى حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة الألوهية ، فقد تصهر النار الحامية هذه الحلقة و تغير صورتها و تمحو جمال استدارتها ، لكنها لا تحيل ذهبها إلى مادة أخرى ، بل تزيده لمعاناً ، و لكن ويل للهشيم إذ تأتى النار و تلتهمه و تجعله رماداً ثم تهب الرياح و تذريه على وجه الصحراء .. إي مرتا .. ، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبيء في الهياكل البشرية .قد داستك تلك النعال بقسوة لكنها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ اليتامى وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة . تعزي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة !"

كنت أتكلم و هى مصغية وقد أنارت التعزية وجهها المصفر مثلما تنير أشعة المغرب اللطيفة خلايا الغيوم . ثم أومأت إليّ أن أجلس بجانب السرير ، ففعلت مسائلاً ملامحها المتكلمة عن مخبآت نفسها الحزينة . ملامح من عرف أنه مائت . ملامح صبية فى ربيع العمر قد شعرت بوقع أقدام الموت حول فراشها البالى . ملامح امرأة متروكة كانت بالأمس بين أودية لبنان الجميلة مملوءة حياة و قوة ، فصارت اليوم مهزولة تترقب الانعتاق من قيود الحياة . و بعد سكينة مؤثرة جمعت فضلات قواها و قالت ودموعها تتكلم معها ونفسها تتصاعد مع أنفاسها :

نعم أنا مظلومة ، أنا شهيدة الحيوان المختبيء في الإنسان ، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام .كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مر راكباً .. قد خاطبني بلطف ورقة وقال لي إني جميلة وإنه قد أحبني فلا يتركني ، وإن البرية مملوءة وحشة و الأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى ... ثم ألوي علّي وضمني إلى صدره وقبلني ، وكنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة .أردفني على ظهر جواده وجاء بي إلى بيت جميل منفرد . ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة ... فعل كل ذلك مبتسما وساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبة ... و بعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذل نفسي غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل ... و هكذا قسمت حياتى إلى شطرين : شطر ضعيف متألم ، و شطر صغير يصرخ فى هدوء الليل طالباً الرجوع إلى الفضاء الواسع . في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة ، لا معين لنا غير البكاء والنحيب ، ولا سمير سوى الخوف والهواجس ...

وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي فجاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغي ابتياع العرض بالمال وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد ..... آه كم قبضت على روحي بيدي لتقديمها للأبدية ، ثم أفلتها لأنها لم تكن لى وحدى ، فشريكى بها كان ولدى الذى أبعدته السماء عنها إلى هذه الحياة و ألقتنى فى أعماق هذه الهاوية ... و الآن ها هي الساعة قد دنت وعريسي الموت قد جاء بعد هجرانه ليقودني لمضجعه الناعم !

وبعد سكينة عميقة تشابه مس الأرواح المتطايرة ، رفعت عينيها المحجوبتين بظل المنية وقالت بهدوء :

ـ أيها العدل الخفيّ ، الكامن وراء هذه الصور المخيفة ، أنت أنت السامع عويل نفسي المودعة ونداء قلبي المتهامل ، منك وحدك أطلب وإليك أتضرع ، فارحمني و ارعَ بيمناك ولدي ، و تسلّم بيسراك روحى !

وخارت قواها وضعفت تنهداتها ، ونظرت إلى ابنها نظرة حزن وحنو ، ثم ميّلت عينيها ببطء و بصوت يكاد يكون سكينة قالت : " أبانا الذى فى السموات ... ليتقدس اسمك ... ليأتِ ملكوتك ... لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض .. اغفر لنا ذنوبنا " .

وانقطع صوتها ،وبقيت شفتاها متحركتين هنيهة وبوقوفهما همدت كل حركة في جسدها .ثم اختلجت وتأوهت وابيض وجهها وفاضت روحها .وظلت عيناها محدقتين إلى ما لا يرى.

***

عندما جاء الفجر وُضعت جثة مارتا البانية في تابوت خشبي ، وحملت على كتفي فقيرين ودُفنت في حقل مهجور بعيد عن المدينة . وقد رفض الكهان الصلاة على بقاياها ولم يقبلوا أن ترتاح عظامها في الجبانة حيث الصليب يخفر القبور.ولم يشيعها إلى تلك الحفرة البعيدة غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة.

(*) نسبة إلى بان و هى قرية جميلة فى شمال لبنان .